الفصل السادس

كلية الحقوق

حقوق طنطا

مرحلة جديدة من مراحل العمر بعد هذا النجاح المبهر فى الثانوية العامة وبعد هذا التكريم الذى أحاطنى به الجميع فى قريتى الصغيرة صغيرهم وكبيرهم، وكان كل واحد منهم يعبر بطريقته أحدهم وكان شابًا يسكن شارعنا وكان يعمل سائقًا اسمه «إبراهيم الشيخ» يعرف أننى أحب ركوب الدراجة فأخذنى وراءه وظل يلف بى البلد بالكامل فرحًا بهذا النجاح، والآخر صديقى الترزى الذى ظل طوال حياكته لملابسى يرفض أن يأخذ إلا ثمن التكلفة فقط، ومن زملائى الذين كانوا معى من نفس السنة أو زملائى من السنوات الأخرى. أما وسائل الإعلام فقد استضافتنى بهذه المناسبة مرارًا، فقد كنت ضيفًا على «نجوى إبراهيم» فى برنامجها «فكر ثوانى واكسب دقائق»، وفريال صالح فى برنامجها «على فين» وكان لهما أثر فى شهرتى الواسعة خاصة فى المرحلة التى تلت الثانوية العامة.

وأذكر موقفًا من مواقف التكريم التى كانت شديدة التأثير على

شخصى وعلى كل الحاضرين فى الحفل الذى أقامه المستشار حامد عبد الدايم رئيس محكمة استئناف طنطا الأسبق الذى كان من قرية شبرا بخوم بمركز قويسنا، وكان يقيم كل عام هذا الحفل بمناسبة استشهاد نجله ضابط الشرطة أحمد حامد عبد الدايم أثناء تأدية عمله، وأرسل إلى جميع الأوائل فى جميع الشهادات دعوة عليها صورة ابنه الشهيد وتحت الصورة هذا البيت من الشعر:

لعمرك ما وارى الترابُ فعالَه ولكنما وارى ثيابًا وأَعظُما

وذهبت لهذا التكريم الذى حضره وقتها محافظ المنوفية وكثير من الشخصيات المهمة، وطلب المنظمون للحفل منى أن ألقى كلمة الطلبة المتفوقين، ووقفت أمام جمع كبير من الناس بينهم الشخصيات الكبيرة وعينى وأنا أتكلم فى عينى أبى الذى انتحى جانبًا لأراه، وكنت كذلك فى جميع مواقف حياتى أستمد منه الثقة والقوة. وعند نهاية الكلمة التى كانت شديدة التأثير ترحمت على أمى التى توفيت من عدة أيام ولم أستطع أن أمسك عينى من جريان الدموع التى سالت من عينى أبى أيضًا، وكان المنبع واحدًا وهو موت أمى المجاهدة الطيبة، وإذا بكل الحاضرين يصفقون بشدة ويقفون احترامًا لهذه السيدة العظيمة وهذا الوفاء من ابن يعرف فضل أمه عليه، وكان مع أبى عمى أبو زيد ذلك الرجل الذى قال لأبى بعد هذه الكلمة التى ألقيتها فى الحفل: لن أناديه بعد ذلك إلا بالأستاذ رضا وكان دائمًا ما يذكرنى بها إلى أن توفى رحمه الله.

وبدأنا فى اختيار الكلية التى سألتحق بها، وكنت قد عقدت العزم على دخول كلية الحقوق قبل هذا المجموع الكبير فهل يتغير الحال؟ إن أبواب الكليات فى القسم الأدبى كلها مشرعة ومفتوحة على مصراعيها

لاستقباله، بما فيها كليتا القمة فى هذا القسم: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وكلية الإعلام، واختار إبراهيم عيسى الأول على المركز كلية الإعلام، وانتظر الناس هل سيدخل رضا مع إبراهيم أم أنه سيبقى على وعده قبل الامتحانات أن يدخل كلية الحقوق. واختلف الرأى، فظللت أنا على اختيارى لكلية الحقوق أما أبى فقد طمع لى فى كلية من كليتى القمة، وكعهدى معه قلبنا الأمر وجرى النقاش بينى وبينه فكانت وجهة نظره أن الدراسة فى إحدى الكليتين تتيح لك فرصة فى الحياة والعمل أكثر من كلية الحقوق المحدودة فى المحاماة أو النيابة والقضاء، وهما أمنية صعبة المنال فى بلد تتحكم فى وظائفها الكبيرة فئة قليلة من أصحاب النفوذ، إذًا فاختياراتها قليلة، أما الاقتصاد والإعلام فمجالاتهما كثيرة جدًّا، فقلت له بواقعية وبنظرة تبدو فيها الثقة أن الحقوق أنسب لى حيث الدراسة نظرية وأستطيع أن أتفوق فيها، ووعدته أن أبذل جهدى لكى أكون معيدًا، وأضفت فى مبرراتى أن طنطا قريبة من مدينة قويسنا إضافة إلى أن معظم الملتحقين بكلية الحقوق من أصحاب المجاميع الضعيفة حيث كانت تقبل من مجموع 53٪ وأنا حاصل على 83٪، وبالتالى ففرصتى كبيرة فى تحقيق ما أريد من الالتحاق بالسلك الجامعى، فاقتنع الوالد بوجهة نظرى.

وكان أول يوم لى فى كلية الحقوق هو أول مرة أرى فيها مدينة طنطا، حيث أخذنى إليها «سعيد منير» الذى يعمل فى محكمة طنطا وكان أحد أقرباء والدى، ورأيت من بعيد عند خروجنا من محطة السكة الحديد مئذنة مسجد سيدى أحمد البدوى، وكأنما تعلن للآتى الجديد بركة المكان ويمن الزمان، وركبنا السيارة تطوى شارع طه الحكيم وتدخل منه إلى

الشارع الرئيسى شارع البحر، ومنه إلى مبنى كلية الحقوق الذى يجاور مبنى جامعة طنطا حيث قُيد رضا عبد السلام طالبًا فى الفرقة الأولى بكلية الحقوق جامعة طنطا، لتبدأ فى حياته مرحلة جديدة وليجهز نفسه لحياة يبنى فيها مستقبله الذى أراده لنفسه فى أن يكون أستاذًا فى الجامعة وفى هذه الكلية العريقة التى تخرج فيها كثير من الزعماء وقادة الفكر والرأى.

ولا أنسى الأيام الأولى فى كلية الحقوق، حيث نستقل القطار صباحًا من مدينة قويسنا حتى مدينة طنطا، ونسلك شارع طه الحكيم سيرًا على الأقدام، الذى يرمى بنا فى نهر شارع البحر الذى لا يحتوى ولو على ترعة صغيرة فهو اسم على غير مسمى، ونمشى على أقدامنا حتى مجمع الكليات فى آخر شارع البحر، ولانستطيع ركوب سيارة لأن ذلك يعنى ضياع مامعنا من مال قليل نحتاجه لسد جوع اليوم الطويل الذى نقضيه فى الكلية. وكانت المسافة التى نقطعها ذهابًا وإيابًا تستغرق حوالى الساعة يوميًا، وكان يدفعنا حماسنا فى سبيل التفوق والنجاح أو على الأقل كان هذا ما كنت أفكر فيه، خصوصًا وأنا مافتئت أغادر ساحات التكريم على التفوق، ولم يعد يؤثر فى نفسى تصويب سهام النظرات من العيون الفضولية، فقد حققت ما قاله لى أبى «اجعل من ينظر إليك يتجاوز نظرة الشكل إلى نظرة التفوق والنجاح، والذكر الأوفى لمن يستحقه من النابهين وعليك أن تكون واحدًا منهم» فأصبحت هذه النظرات بالنسبة لى نوعًا من التكريم.

وبخلاف ذلك، كان هناك بعض الناس الطيبين الذين ينقصهم الوعى اللازم فى كيفية التعامل مع هذه الفئة دون أن يسبب حرجًا لنفسه أو لواحد مهم، وكان ذلك كثيرًا ما يحدث من راكبى قطار الصعيد الآتى من الإسكندرية متجهًا إلى أسوان، وكنا نركبه من طنطا، وكنت أعمل له

ألف حساب حيث الإخوة الطيبون من أهل الجنوب الذين يسألون بلا أدنى حرج حتى، إن أحدهم كان جالسًا أمامى وكان يأكل، فأخذ ينظر إلىَّ ويتفحص ويطيل النظر مرة بعد مرة، فتجاهلته حتى لاينتبه زملائى حولى، لكنه لم يتركنى، حيث عرض أولًا أن أشاركه الأكل فشكرته واعتذرت، ثم فاجأنى بسؤال عجيب بطريقة أهل الصعيد ولهجتهم: «خلجة ربنا دى ولا تعويرة» ويشير بيديه إلى يدى. فثارت بنت كانت تسافر معنا ورأت الموقف من أوله، وصرخت فى وجه الرجل فهدأتها ونظرت إلى صاحبنا وقلت له بطريقته: «خلجة ربنا يا سيدى، أنت رايح فين» فرد علىَّ رايح أسوان فقلت له: «بالسلامة»، وانتهى الموقف الذى أثبت رغم حرجه أننى قد استوعبت تمامًا هذه التصرفات التى تنم عن انعدام الخبرة من التعامل مع شخص مختلف فى بنائه الجسدى أو النفسى، خصوصًا أن الجميع يريدون الخير كما أراد هذا الرجل، لكن الوعى مفقود، لذا لابد من الحكمة فى التصرف فى مثل هذه المواقف ومع هؤلاء الناس الذين نعيش معهم.

وبعيدًا عن هذا الموضوع، فقد كنت على أهبة الاستعداد للسنة الأولى، خاصة وأن الحرية مطلقة تقريبًا، فلا رقيب على تصرفاتى إلا نفسى، ومن ثم كان تقدير المسئولية وبخاصة عندما عرفت أننى ضمن أربعة فقط فى الكلية حاصلين على مجموع أكثر من ثمانين فى المائة، منهم الأخ الذى كان العاشر فى الثانوية العامة على محافظة المنوفية حيث كان يسبقنى بنصف فى المائة، والأخ الدكتور رضا الأحول الذى حصل بعد التخرج على درجة الدكتوراه فى التشريعات الضريبية حيث عمل فى مصلحة الضرائب، وهكذا رأيت نفسى وأنا أدخل إلى البوابة الكبيرة لجامعة طنطا التى

تسلمنا جهة اليسار إلى إدارة كلية الحقوق، وقد أعطانى الأستاذ عدس ذلك الشاب الأسمر نحيل الجسم المبتسم دائمًا كارنيه الطالب فى السنة الأولى بكلية الحقوق جامعة طنطا.

فى قاعة المحاضرات.. لومبروزو والشيخ السلفى

الجامعة هى مرحلة الانطلاق العاقل والحرية المحسوبة والقراءة المنهجية الواعية والأصدقاء الجدد من جميع الأماكن، وللجامعة منزلة أعلى بالنسبة إلى واحد مثلى، عنده هدف يريد أن يحققه بعد معاناة طويلة مع العوائق البشرية؛ من العقول المغلقة والأذهان الموصدة والقلوب المقفلة التى كانت تظهر بين الحين والآخر والعوائق الطبيعية التى يصادفها كل الناس فهو يعرف طريقه ويحدد هدفه جيدًا.

كانت نقلة كبيرة إلى مجتمع جديد مفتوح الأبواب ومشرع على جميع الاتجاهات وبه مستجدات لم يعهدها مثلى، حيث هذا الاختلاط الذى لم يكن لى عهد به من قبل، وهذه الأزياء التى تخطف عين شاب قبل سن العشرين، وما يعلو هذه الأزياء من وجوه بشرية غاية فى الجمال والأناقة، وهذه الجموع من الطلبة الذين لا يمكن إذا رأيت بعضهم أن تصدق أنهم جاءوا لطلب العلم، حيث الكافتيريا التى تستقبل هؤلاء طوال اليوم. وكانت ساحة مجمع الكليات واسعة جدًّا، حيث كان للحقوق مدرجان كبيران، وللطب البشرى مبنى خاص به، ولطب الأسنان مبنى خاص به، ولكلية التجارة مدرجان، كل هذا فى مكان واحد. وكانت هذه الساحة الذى ينتصفها كوبرى تمتلئ عن آخرها بالطلبة.

وكنت من الحريصين على حضور جميع المحاضرات لكل الأساتذة،

وكنت أستمتع بذلك، وكنت أجلس فى المدرج وأضع أمامى كراسة المحاضرات وأمسك القلم بفمى ولا ألتفت إلى من ينظر إلىَّ. وماهى إلا أيام حتى تعود الطلبة على هذا الطالب الذى علم الكثير منهم أنه جاء ليكون معيدًا فى هذه الكلية، معه مجموعه فى الثانوية الذى ينبئ عن ذلك. وكان المحاضر يجلس أو يقف على مكان يشبه المسرح، ويمسك بالميكروفون حيث القاعة واسعة تسع حوالى ثلاثة آلاف طالب، هم طلاب السنة الأولى ويلقى محاضرته التى تستمر المدة المحددة له.

ومن المحاضرين الذين كنت أحرص على حضور محاضراته «الدكتور عماد الشربينى» عميد الكلية، والذى كان يدرس لنا «نظرية الحق» أو كما كان يطلق على كتابه «مبادئ القانون»، حيث كان هادئًا واضحًا بسيطًا فى عرضه، يذكر المعلومة بأكثر من وجه، بالقياس مرة، وبالتمثيل مرة حيث تمثل هذه المادة التعريف بمفهوم القانون وبالصفات الواجبة فى القاعدة القانونية، وما يتفرع عن المادة القانونية من مفاهيم. وكان قريبًا جدًّا من الطلبة، حيث كان بابه مفتوحًا لكل من يطرقه منهم، وقد دخلت عليه عدة مرات كانت إحداها وهو يسلمنى كأس الطالب المثالى على كلية الحقوق حيث حصلت فى السنة الثانية على المركز الثالث على دفعة يربو عددها على ثلاثة آلاف طالب، ووعدنى إذا حصلت على تقدير جيد جدًّا فى السنة الرابعة فإنه سيعيننى معيدًا فى الكلية، وكان وقتها قد عُين رئيسًا لجامعة طنطا، فلما لم أحصل إلا على جيد فقط لم أطرق بابه بعد ذلك خجلًا منه.

ومن الأساتذة الذين كنت أنتظر محاضرته الدكتور «مصطفى عفيفى» الذى كان يحاضرنا فى «القانون الدستورى ونظريته العامة»، وقد كان

يلقى المحاضرة فى ساعتين كاملتين تحس كأنها خمس دقائق، حيث كان يشرح النظريات المؤسسة للدساتير وللقوانين، وقد شدنى شرحه لتلك النظريات التى وضعها المفكران الكبيران فى فرنسا؛ جان جاك روسو صاحب نظرية العقد الاجتماعى ومنتسكيو صاحب مبدأ الفصل بين السلطات، وهو من أهم المبادئ الدستورية فى الدول الديمقراطية، مما دعانى لأن أبحث عن كتب تتحدث عنهما وعن هاتين النظريتين.

وجدت ضالتى فى كتاب فى مكتبة الكلية بعنوان «جان جاك روسو، حياته وكتبه» كتبه الدكتور محمد حسين هيكل، وكان كتابًا ممتعًا تحدث فيه عن هذا المفكر الفرنسى الكبير وعن ميلاده فى جنيف بـ«سويسرا» عام 1712، وانتقاله بعد أن عمل خادمًا ومعلمًا للموسيقى إلى فرنسا. ويقول الدكتور هيكل فى مقدمة الكتاب على لسان روسو: «إن الملكية الخاصة والترف والإمعان فى الشهوات هى سبب كل التعاسات المكدسة التى تقع على رؤوس ملايين الفقراء، والتى يحتملها الشعب لما طال إيهامه أنها أصلح الأنظمة للوجود الاجتماعى، وإنه لا سبيل لتخليص الأغلبية من هذا الشقاء إلا بعودة الإنسانية إلى حالتها الطبيعية»، ويعلق الدكتور هيكل: «هذه الفكرة هى القائدة فى كتب روسو كلها، وعلى أساسها وجه النقد المر لما اعتقده خروجًا على الطبيعة من علوم وفنون وسلوك وتحكم الاستبداد فى رقاب البشر». وقد بدأ روسو كتابه العقد الاجتماعى الذى أحدث ثورة فى المجال الاجتماعى والسياسى بهذه العبارة: «ولد الإنسان حرًا إلا أنه مكبل فى كل مكان بالأغلال، ومع ذلك يتصور نفسه سيدًا على الآخرين الذى لا يعدو أن يكون أكثرهم عبودية».

أما المبدأ الذى وضعه مونتسكيو وهو «الفصل بين السلطات» والذى

أصبح عنوانًا ودليلًا على ديمقراطية الدول والذى أخذت به الدول المحترمة فقد ضمنه كتابه «روح القوانين» الذى تحدث فيه عن الدستور ومبدأ الفصل بين السلطات وإلغاء الرق والمحافظة على الحريات المدنية والقانون، وكما تبنى فكرة أن المؤسسات السياسية يجب أن تعكس المظاهر الاجتماعية والجغرافية للمجتمع. أما دولنا فقد أهملت هذا المبدأ فى تاريخها الحديث، وأصبحت السلطات تنطلق من يد الحاكم وإليه تعود، مع بعض الاستثناءات فى تاريخ هذه الدول حيث يحاول بعض أصحاب العقول فيها أن يستدعوا مونتسكيو من القرن الثامن عشر لكى يصلح ما أفسده دعاة الاستبداد فى كل زمان ومكان.

ومن المواد التى كنت أحبها جدًّا وأحب القراءة فيها كانت «علم الإجرام والعقاب» والتى كان يُدرسها لنا الدكتور «يسر أنور» الذى كان ينزل من سيارته الفارهة يلبس بذلة لونها نفس لون القميص وبنفس لون الحذاء وفى فمه سيجار طويل لزوم المظهر والشهرة و«الشو» الذى كان يحبه ويسعى إليه، وكان يستقبله على سلم المدرج طالب طويل يؤدى حركات لا تحدث إلا على المسارح والملاهى، وكان الدكتور يشجع هذه الحركات، ثم يدخل إلى المدرج ويظل طوال المحاضرة فى هذه المسرحية التى تنتهى بما ابتدأت به من هذه المشاهد دون أن يشرح شيئًا مما جاء من أجله. أما كتاب المادة فكان كتابًا مهمًا بذل فيه مجهودًا رائعًا، كنت أعجب كيف يكون هذا الكتاب بهذا العمق ويكون صاحبه فى قاعة المحاضرات بهذا الشكل المسرحى؟!

واشتمل الكتاب على مجموعة من النظريات فى علم الإجرام فى علم النفس، كنظرية المفكر الإيطالى لومبروزو، الذى خرج بنظرية تقول بالربط بين المجرم وبين التخلف العضوى أو الخلقى، وكان يعتقد

أن الإنسان ذا البنية الضعيفة أو غير النامية بشكل صحيح قد يسلك بخلاف الشخص الطبيعى. وقد حدد لومبروزو مجموعة من الصفات تشبه صفات الحيوانات البدائية وتعود للإنسان غير المتطور، وقال إن توفر خمس صفات أو أكثر من هذه السمات الجسدية يجعل الفرد خاضعًا للنمط الإجرامى التام، وإذا توفر لديه ثلاث صفات يكون من النمط الإجرامى الناقص، وإذا قلّت هذه الصفات عن ثلاث فليس من الضرورى اعتباره مجرمًا. وهذه الصفات لا تكون سببًا فى الجريمة بقدر ما تعنى ارتداد صاحبها إلى النمط المتوحش البدائى. وقد أُنتقدت هذه النظرية باعتبار أن الإجرام يتسبب فيه مجموعة من العوامل، منها التنشئة غير السليمة والبيئة المحيطة وغيرها من العوامل.

ودرسنا أيضًا فى كتاب نظرية فرويد فى التحليل النفسى، والتى قسم فيها النفس إلى النفس ذات الشهوة وسماها الذات الدنيا، والمرتبة الثانية وسماها الذات الشعورية أو الحسية ويقصد بها الذات العاقلة، والمرتبة الثالثة وهى الذات المثالية ويقصد بها الضمير. ويرى فرويد أن السلوك الفردى يتوقف على مدى العلاقة بين الأقسام الثلاثة السابقة للنفس الإنسانية، فإذا تغلبت الشهوات والميول الفطرية والنفس ذات الشهوة فإن السلوك يكون منحرفًا وتكون شخصية صاحبه غير ناضجة، أما إذا تغلبت المثل والقيم الموروثة وتحكم الضمير والعقل (الأنا العليا) كان السلوك قويمًا وكانت شخصية صاحبه ناضجة.. هكذا كان هذا الكتاب الممتع الذى كان من أحب الكتب التى كنت أقبل عليها، وإن كنت وقتها لايعجبنى أسلوب صاحب الكتاب فى قاعة المحاضرات على الرغم من كونه أستاذًا كبيرًا فى هذه المادة.

أما مادة «المنظمات الدولية» فقد كان يدرسها ذلك الشاب المعتز جدًّا بنفسه والحاصل على درجة الدكتوراه منذ سنوات قليلة، وهو الأستاذ «الدكتور مصطفى فؤاد» الذى أصبح بعد ذلك عميدًا للكلية، وكانت محاضرته لاتسمع فيها الهمس لأنه كان يمكن فى أى لحظة أن يطرد أى طالب يخرج عن النظام أو يُحدث أى صوت. شرح لنا المحاضر النظام القانونى لعصبة الأمم التى أنشئت عام 1919 بعد الحرب العالمية الأولى ولم يسهب فيها، ولكنه شرح شرحًا وافيًا النظام القانونى للأمم المتحدة التى أنشئت فى 24 أكتوبر 1945 ومجالسها المختلفة. وكان رغم شدته إلا إنى كنت أستمتع بمحاضراته لأنه كان يتحدث عن واقع عالمى نعيش فيه، وكان كثيرًا ما يستشهد بوقائع عالمية واقعية معاصرة وشخصيات عالمية، وكثيرًا ماكان يشير إلى الرئيس الفرنسى فى هذا الوقت فرانسوا ميتران.

وفى السنة الأولى كان يحاضرنا فى الشريعة الإسلامية «الدكتور عبد الفتاح الشيخ»، فقد دَرّس لنا التشريع الإسلامى؛ مصادره وخصائصه، وكان هادئًا فى شرحه يميل إلى الاستقصاء، وكانت مادته فى هذه السنة شديدة الأهمية، حيث كنا ندرس مصادر التشريع الإسلامى مع بيان عبقرية التشريع الإسلامى فى تناوله للقضايا التى كانت تمثل تحديًا فى البيئة العربية التى لا تقبل نظامًا تشريعيًّا يلتزم به الجميع. كما شرح لنا معنى أن يكون النص حاكمًا، وما المدى الذى يجب أن يعمل فيه النص ومتى يوقف العمل به وكيف ولماذا وهل يجوز؟ كانت هذه المباحث فى مادة الشريعة بمثابة فتح الشهية لما سيأتى بعد ذلك فى السنوات التالية، حيث إن الشريعة الإسلامية من أهم المواد التى يدرسها طالب

كلية الحقوق، لذلك عجبت لهذا الشيخ السلفى الذى أفتى بعدم جواز الدراسة فى كليات الحقوق لأنها تدرس الكفر!!! فقلت عندما قرأت هذا الكلام أن خريجى كليات الحقوق هم أقدر الناس بل أقدر من هذا الشيخ نفسه على الدفاع عن الإسلام كشريعة، لأنه درس الشريعة ودرس القانون، وبالتالى فهو أقدر على الدفاع بحق عن الشريعة الإسلامية.

الاشتراط لمصلحة الغير.. ثالث دفعة

فى السنة الأولى، وعلى الرغم من الاهتمام بالدراسة ومحاولة المحافظة على المستوى الدراسى الذى كان مضرب المثل فى السنة النهائية للثانوية العامة إلا أن الرياح جاءت بما لا تشتهى نفس صاحبنا ولا أسرته التى كانت تنتظر منه أن يكون أول دفعته. ومازلت أذكر يوم الجمعة الذى علم فيه أبى بظهور النتيجة فأرسل أخى حسن دون أن يخبرنى، ولما لم أجد حسن فى الصلاة سألت عنه بعد أن خرجنا من المسجد، فأشار أبى إلى حسن الذى جاء من توه من مدينة طنطا ووجهه مبتسم وينادى من قريب: مبروك جبت جيد، لم يعلق والدى إلا بكلمة مبروك بصوت تحس فيه بعض اللوم فلم أنطق بكلمة، ولكن صممت أن أثأر لنفسى فى العام التالى الذى ندرس فيه النظريات العامة للقوانين التى سندرسها تفصيلًا فى السنة الثالثة.

لعل عدم حصولى على ترتيب متقدم فى السنة الأولى كان بسبب الجو الذى استغرق وقتًا لكى أئتلف معه، أو ما يمكن أن نسميه «الصدمة المكانية والزمانية» حيث اختلاف المكان واتساعه وحيث الزمان له مواصفاته المختلفة عما كان قبل ذلك. فبالرغم من أننى كنت فى سباق

للمحافظة على التفوق ليتسنى تحقيق الحلم بتعيينى معيدًا فى الكلية، فقد كانت هناك بعض المشاكل فى السنة الأولى، مثل تجربة المدينة الجامعية التى قضيت فيها مدة قليلة ثم تركتها إذ كانت فى منطقة فى مدينة طنطا تسمى «سيجر» وكانت فى مكان شعبى لا يصلح أن يكون مكانًا لمدينة جامعية لطلبة يدرسون فى جامعة، فلم أستطع أن أمكث فيها وتركتها بعد أن استنزفت كثيرًا من جهد كان يجب أن يكون للدراسة. وكبديل للمدينة الجامعية، كان السفر اليومى الذى كنت أرجع منه وقد هدنى التعب فلا تستطيع عيناى أن تصافح سطور أى كتاب فأسلم رأسى للنوم.

وعامدًا كنت أقبل على مناهج معينة، فأعطيها اهتمامًا أكبر ككتاب علم الإجرام أو كتاب مصادر التشريع الإسلامى إضافة إلى جريدة الأهرام التى لابد أن أقرأ ما يكتبه مجموعة من الكتاب على مدار أيام الأسبوع، كان منهم الدكتور زكى نجيب محمود الذى كان له مقال أسبوعى، والأستاذ فهمى هويدى ومقال الثلاثاء، والأستاذ لطفى الخولى ومقاله الأسبوعى، والأستاذ أحمد بهجت وصندوق الدنيا اليومى، وأنيس منصور ومواقف، ومقالات توفيق الحكيم ويوسف إدريس، كل هؤلاء كنت أقرأ كل كلمة كانوا يكتبونها فى الأهرام. وكان على المكتب الذى أذاكر عليه مجموعة من كتب التفسير وكتب الشعر، كنت أحيانًا كثيرة أفتحها للترويح، فإذا بالترويح يخطف وقت دروس الحقوق والجنائى والمدنى، كل هذه الأسباب جعلتنى بعيدًا عن الترتيب المتقدم على الدفعة وتسببت فى عدم حصولى على تقدير جيد جدًّا ناهيك عن الامتياز، فهو فى كلية الحقوق كان ضربًا من الخيال.

بدأت السنة الثانية وأنا مصمم على أن أحصل على ترتيب متقدم أو

على الأقل الحصول على جيد جدًّا، وكان شاهدًا على تلك الفترة الأخ الصديق فؤاد المرسى الذى كان زميلى فى هذه السنة وهو فى نفس الوقت موظف فى مديرية أمن المنوفية، وشهدنا معًا سنة قوية من حيث المواد ومن حيث استعدادنا لها، ومن حيث هؤلاء الأعلام الكبار الذين صبوا فى آذاننا صوت العلم ومنطق العقل وروح القانون، وتعلمنا على أيديهم معنى الجدية فى طلب العلم.

ومن هؤلاء الكبار كان الدكتور «عبد الودود يحيى» أستاذ القانون المدنى فى جامعة القاهرة، ذو الوجه الأوروبى المشرب بحمرة بادية فى ثنايا وجهه الجاد، والذى كان رغم سنه الكبيرة يظل ساعتين كاملتين يشرح الموضوعات الخاصة فى القانون المدنى، وهى تحتاج إلى الوقوف عند بعض تفاصيلها، وإلا يفلت منك الفهم الصحيح لها إذ قد تتشابه فتضيع منك ملامحها المحدِدة، مثال ذلك التعهد عن الغير، كتصرف قانونى والاشتراط لمصلحة الغير فبينهما بعض التشابه وللتحديد بينهما لابد أن تحدد تفاصيل كل تصرف منها، وهذه كانت مجالًا لبراعته كأستاذ كبير. وقد رسم د. عبد الودود لنفسه صورة فى أذهاننا ونحن طلبة، صورة الأستاذ المخلص المتجرد الذى يحترم نفسه ويحترم تلاميذه ويحترم العلم الذى ينقله إليهم، ويحترم التقاليد الجامعية باحترامه للوقت، فلم يثبت عليه يومًا تأخر فيه عن محاضرته ولا فرط فى وقتها، فقد كان يبدأ فى العاشرة مثلًا وينتهى فى الثانية عشرة تمامًا. وإذا كان كل الدارسين للقانون المدنى فى كلية الحقوق يشكون من صعوبة هذه المادة فكنت أنا وصديقى فؤاد المرسى وكثير من زملائنا نعشق هذه المادة لعشقنا لهذا الأستاذ الجليل.

أما موضوعات الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والرجعة والحضانه وغيرها فقد تعلمنا أصولها على يد هذا الأستاذ الكبير «الدكتور أحمد فراج»، الذى كان أسمر اللون تشى لهجته بأنه من الصعيد الجوانى على الرغم أنه كان أستاذًا فى حقوق الإسكندرية. وكان أستاذنا شديد الدقة فى العرض مستوفيًا لكل مايتعلق بالموضوع، فأذكر عندما كان يشرح ما يتعلق بتزويج المرأة نفسها؛ هل يجوز أم لا؟ كان يفعل ذلك بتجرد حرمنا منه السلفيون ومن نحا نحوهم، فكان يعرض رأى الأحناف الذين يجيزون تزويج المرأة نفسها بنفسها بغير إذن وليها، مخالفًا رأى الجمهور فى أنه لايجوز نكاح المرأة إلا بولى، وهنا التجرد فى العرض والأمانة فى نقل جميع الآراء، كذلك كان هذا العالم الجليل والأستاذ الكبير.

وهكذا كانت هذه السنة شديدة الأهمية، حيث أردت أن أثبت لنفسى أنى قادر على التفوق خصوصًا وأنى قد حفظت بعض المواد التى ندرسها، من كثرة ماجرت عليها عيناى ومن التأمل فيها والوقوف عندها، بالرغم من أن الحفظ لم يكن أسلوبى ولا منهجى، ولكن دراسة القانون تحتاج أحيانًا إلى هذه الوسيلة.

ودخلت الامتحان باللجنة الخاصة التى تجاور زملائى فى الخيمة الضخمة التى تغطى الجميع، وخُصص موظف ليكتب لى فرفضت، وأمسكت القلم بفمى وبدأت أعرض المفاهيم المختلفة مثل روح القوانين ومفهوم التصرفات القانونية ومآلات الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية والصور التى تكون عليها نية الجانى عند اقتراف جريمته وهل هو متعمد فله عقابه المحدد أم مخطئ فله عقاب آخر وهكذا

فى كل المسائل التى قضينا فيها عامًا كاملًا كدًا وتعبًا. وبعد الخروج من كل مادة كنت أنا وفؤاد المرسى نراجع ماكتبناه فى ورقة الامتحان وكان مرضيًا لى إلى حد كبير.

حتى جاء يوم امتحان القانون المدنى الذى كنت أعشق موضوعاته لشدة حبى لأستاذى «الدكتور عبد الودود يحيى»، ونظرت للورقة بعد المراسم التى أقوم بها عند بداية كل مادة فأسمى الله وأقرأ سور الإخلاص والفلق والناس وآية الكرسى وأتوكل على الله، وكانت الأسئلة جميعًا بتفاصيلها أعرفها جيدًا وبدأت الكتابة، وبعد أن انتهيت وبدأت فى آخر نصف ساعة أراجع ما كتبت لأسلم الورقة، وجدت السؤال الأول: أكتب عن الاشتراط لمصلحة الغير، وعند المراجعة وجدتنى وقد كتبت عن التعهد لمصلحة الغير، فأصابنى الهلع لأنه لم يبق إلا نصف ساعة وسأضطر إلى تشويه الورقة بشطب ما كتبته عن سؤال غير مطلوب، والإشارة إلى أن إجابة هذا السؤال توجد فى نهاية الورقة قد تجعل المصحح يهمل فى التصحيح، وأصبح عَلَىّ أن أسرع فى إجابة السؤال الصحيح فى نهاية الورقة وهذا ما فعلته.

خرجت من لجنة الامتحان أبكى، وكان من عادتى أنا وفؤاد المرسى أن نقف بجانب سلم محطة القطار وكان كثيرًا من الزملاء يأتون ليسألونا عن الإجابات الصحيحة، وفى هذا اليوم أخذ فؤاد يطمئننى على أنك ستأخذ الدرجة كاملة وأنا شديد الحزن على السؤال الذى أجبته فى نهاية الورقة، وهو يقول لى انظر للطلبة يشتكون من هذا الامتحان وأنت لم تترك فيه سؤالًا إلا أجبته كما تريد. وحدث وقتها موقف جعلنى أشكر الله على ما أنا فيه وألا أتبطر على نعمة الله كما يقال، حيث جاء زميل كان

يقضى وقته كله تقريبًا على الكافتيريا ولم يكن مهتمًا بالدراسة وطلب أن أراجع معه الامتحان، فاعتذرت فأصر وكان فؤاد يقف بجانبى، وبدأ صاحبنا فى بيان ماكتب فى كل الأسئلة، فلم أجد سؤالًا واحدًا إجابته صحيحة فى كل الامتحان وأنا أطمئنه بكلام يحتمل الصحة والخطأ، وفى النهاية أشعل عود ثقابه بعد أن علق سيجارته بين شفتيه وأخذ نفسًا عميقًا فرحًا بما فعل وكأنه سيحصل على الدرجة النهائية، فنظر إلىَّ فؤاد نظرة تقول: احمد الله وانظر حولك.

وتنتهى الامتحانات، وكعادتى بعد الامتحانات كنت أتوقع النتيجة التى أنتظرها وتكون عادة أفضل قليلًا مما توقعت. وفى يوم إعلان النتيجة ذهبت فى الصباح الباكر مع أحد أصدقائى حيث إدارة الكلية فى شارع البحر، فدخلت من البوابة ورجَلَّى لاتقويان على حملى حتى وصلت إلى لوحة إعلان النتيجة، ولأن الوقت كان مبكرًا فلم يكن معى على اللوحة إلا بعض زملائى، فجرت عينى على الأسماء المدرجة حتى اقتربت من رقم الجلوس الذى كنت أحفظه فوقعت عينى على الاسم: رضا عبد السلام حسن، فنظرت مباشرة إلى نهاية السطر فوجدت التقدير العام جيد جدًّا، فنظرت إلى تقديرات المواد فوجدت ثلاثة من المواد امتياز منها القانون المدنى صاحب سؤال الاشتراط لمصلحة الغير وثلاثة من المواد جيد جدًّا وأربعة مواد جيد، فلم أتمالك نفسى وبكيت فرحًا، وذهبت وقتها إلى المسجد على يمين مبنى الجامعة وتوضأت وصليت ركعتين شكرًا لله على هذه النتيجة المرضية، والتى أثبتت لى أن معادلة النجاح هى العمل الجاد والإصرار على تحقيق الهدف والإخلاص الذى يجب أن يكون ظهيرًا للعمل دائمًا لأنه الروح التى تسرى فيه فتجعله وفير الإنتاج

عظيم الثمار. عرفت بعد ذلك عند التكريم أننى الثالث على دفعة يقترب عدد طلابها من ثلاثة آلاف طالب، وكان فرحًا أقامه الوالد والبيت كله والزملاء بهذه المناسبة التى أعادت صاحبنا إلى طريق التفوق وإلى نهج التقدم الدراسى المشهور به بين زملائه وفى محيط أسرته وفى قاعات المحاضرات فى الجامعة. لكن بقيت سنتان فهل سيكون الأمر فيهما على ماكان فى السنة الثانية أم سيختلف الوضع.. هذا ما بينته الأيام التالية.

ليسانس الحقوق

من أشد السنوات صعوبة فى رحلة تعليمى كانت السنة الثالثة فى كلية الحقوق حيث المناهج طويلة وكثيرة، فبعد أن كنا ندرس النظريات العامة بقواعدها الكلية دخلنا إلى التفصيل، حيث العقود بكل تفصيلاتها فى القانون المدنى كعقد البيع وعقد الإيجار وغيره من العقود، وفى القانون الجنائى أخذنا الجرائم المتعلقة بالأموال كالسرقة والاختلاس والجرائم المتعلقة بالاعتداء على النفس كالقتل والجرائم المتعلقة بالعرض كهتك العرض والزنا، وهكذا فى كل المواد. كنت أحس عندما أفتح هذه الكتب أنى أسبح فى بحور ليس لها شطآن، صحيح المعلومات ممتعة لكن كانت كثيرة جدًّا وطويلة جدًّا، لذا فقد حصلت فى هذه السنة على تقدير جيد، ولم أكترث كثيرًا لأن النظام وقتها لم يكن يعرف التقدير التراكمى وإنما كان يعترف بتقدير السنة النهائية.

فى السنة النهائية، عبأت نفسى لكى أحقق ما وعدنى به عميد كلية الحقوق الذى أصبح رئيسًا للجامعة الدكتور عماد الشربينى، حيث قال لى فى إحدى مرات التكريم أنك لو حصلت على جيد جدًّا فى الليسانس

فسوف أُعينك معيدًا فى كلية الحقوق. وبدأت السنة بجد ظهر فى اهتمامى الشديد بكل صغيرة وكبيرة، وخليت نفسى من كل المشاغل إلا موقف يستحق أن نسجله كى يعطى أصحاب الفضل حقهم.

قامت رعاية شباب الجامعة التى كان يرأسها الأستاذ «وحيد الخرادلى» والذى كان رجلًا غاية فى النشاط بدعوة الطلاب المثاليين على مستوى الجامعة، قابلت وقتها خيرة شباب جامعة طنطا؛ «الدكتور راجح الشال» الطالب المثالى على كلية الطب هذا الشاب شديد الأدب وصاحب الأخلاق العالية والوجه المبتسم والذى أصبح الآن من أكبر أطباء الأشعة فى مصر، و«الدكتور على صباح» الطالب المثالى على كلية الطب مع الدكتور راجح والذى كان وجهه ينبئك عن ذكاء يظهر فى عينيه عندما يتكلم وكان حييًا جميلًا، و«الدكتورة منى الشريف» الطالبة المثالية على كلية الطب أيضًا والتى كان تفوقها معروفًا فى الجامعة كلها، وأخوها «الدكتور محمد الشريف» بظرفه الجميل وأدبه العالى والذين أحاطونى بجميل عطفهم ونبل معاملتهم، فأذكر أنهم قد جمعوا الصور التى ألتقطت لنا وصنعوا منها أوتوجرافًا جميلًا هدية منهم مازلت أحتفظ به إلى الآن. وقد كرمتنا الجامعة ورشحتنا فى برنامج كان يقدمه المذيع الرياضى الآن «مدحت شلبى» اسمه «دورى الجامعات»، فكان يختار مجموعة من الطلاب من كل جامعة وتجرى المباريات بينهم، ومع كل فريق يشارك ضيف من الضيوف المشهورين، فكان معنا فى فريقنا اللاعب المشهور جدًّا وقتها الكابتن طاهر أبو زيد، وأذكر كم كان لطيفًا معنا ومعى أنا بالذات حيث كان مع كل سؤال ينادى فين رضا؟ وأذيعت هذه الحلقات وأحدثت أثرًا كبيرًا وقتها عند كثير من الناس.

.. وبعد هذا التكريم، اختليت بكتب السنة الرابعة. أعجبتنى كثيرًا مادة أصول الفقه، هذه المادة التى شكلت وعيى للدين عامة وللفقه خاصة، حيث تعلمت منها كيف يستنبط الحكم الشرعى وماهى مراتبه التى تتدرج من الوجوب إلى الندب إلى الكراهة إلى التحريم، ومتى يصبح الفعل مباحًا وما معنى الإباحة وكيف نفهم القاعدة الشرعية، ومن هو الفقيه وماهى المؤهلات التى يجب أن تتوفر فيه، ورغم صعوبة هذه المادة إلا أنى كنت أعشقها. وكذلك مادة الإجراءات الجنائية التى كان مقررًا علينا فيها كتاب «الدكتورة آمال عثمان» التى كانت وزيرة الشئون الاجتماعية وقتها، وكان يدرسها لنا نيابة عنها المحامى العام لمدينة طنطا، وكان الكتاب يحوى أكثر من ألف صفحة، وكانت القراءة فى هذا الكتاب ممتعة حيث يتحدث عن إجراءات القبض والتفتيش ومتى تكون باطلة ومتى تكون صحيحة وما هى وسائل حفظ التحقيق ومن له الحق فى هذا. وأذكر أن رئيس مجلس الشعب وقتها «الدكتور محمد كامل ليلة» كان يدرس لنا القرار الإدارى، ولم يأت فى هذه السنة إلا مرتين شرح فيهما منهجه فى اتخاذ القرار الإدارى ببراعة، حيث كان يلخص محاضرته التى تستمر ساعتين فى نقاط مركزة وكان صوته قويًا يهز قاعة المحاضرات من شدته.

وضعت خطة لكى أحقق الحلم وأحصل على تقدير جيد جدًّا فى هذه السنة كى أستطيع أن أُعين معيدًا فى الكلية كما وعدنى رئيس الجامعة، فركزت على المواد التى أستطيع أن أحصل فيها على الامتياز حتى ترفع التقدير، اخترت اللغة الفرنسية وكانت عبارة عن مصطلحات تحفظ ثم يُجاب عنها بسهولة، ومادة اسمها الإدارة العامة وكانت مادة سهلة

وقليلة الحجم، ومادة أصول الفقه التى كانت أكثر المواد استيعابًا وأكثرها هضمًا حتى كدت أحفظ موضوعاتها.

وبدأنا الامتحانات، ولا أنسى أبدًا هذه السيدة الوقور الحازمة القوية التى راقبت على لجنتى الخاصة، فلما وجدتنى أكتب بفمى وأرفض أن يكتب لى أحد ورأت كيف أمسك بالقلم بفمى ولا يغادره إلا فى الدقيقة الأخيرة من الوقت كانت تختار بعد ذلك أن تراقب فى لجنتى لحرصها على أن تبعد عنى أى شىء يعيقنى وأنا أكتب، حتى إنها كانت تعنف من يرفع صوته من اللجان المجاورة. كانت هذه السيدة شاهدة على أصعب المواقف التى شهدتها فى مسيرة تعليمى.

ففى مادة الإدارة العامة وجدت أن إجابة الأسئلة بالتفصيل فى رأسى، فبدأت أكتب، ولأنى أريد الامتياز كتبت فى السؤال الأول المشتمل على ثلاث نقاط كل شىء كلمة كلمة، وبدأت فى السؤال الثانى المشتمل على نقطتين، وبعدما بدأت قالت لى هذه السيدة الطيبة: بقى فى الوقت نصف ساعة فقط، فاجأنى قولها وقلت لها أنا أريد وقتًا إضافيًا وكراسة إجابة أخرى لأن الكراسة التى أكتب فيها ستنتهى بعد ورقة أو ورقتين وأريد أن أكمل الإجابة كما أريد، وكان حاضرًا فى هذا الوقت فى اللجنة رئيس الكنترول وكان أستاذًا فى كلية الزراعة ولم أكن أعرفه، فلما قلت أريد وقتًا إضافيًا وكراسة جديدة لأن لى ظروفًا خاصة وأنا فى لجنة خاصة، فوجئت بهذا الرجل يقول: لا وقت ولا كراسة، فنظرت إلى السيدة المراقبة ولم ألتفت له وكررت عليها السؤال وقلت لها: أريد الدكتور مصطفى فؤاد رئيس اللجنة فرد هذا الرجل مرة أخرى وقال: لا وقت ولا كراسة، فانفجرت فيه وقلت من أنت؟ ومن الذى أدخلك هنا؟ أخرج بره أخرج بره، وهممت أن

أخرج من اللجنة، فأجلستنى المراقبة وقالت لى: إن هذا الرجل أستاذ فى كلية الزراعة وهو رئيس الكنترول للسنة الرابعة عندكم، ولا يمكن أن أنسى ردى عليها حينما قلت لها: حتى ولو كان رئيس الجمهورية، وأخذت هذه السيدة تهدئ من روعى وترجونى أن أواصل الكتابة، وخرج هذا الأستاذ وجاء الدكتور مصطفى فؤاد رئيس لجنة الامتحان وكان يعرفنى جيدًا، وربت على كتفى وهدَّأ من روعى ثم قال لى بهدوئه المعروف: لا أستطيع أن أعطى لك دقيقة واحدة ولكن سوف أعطيك كراسة إجابة على مسئوليتى، فلم أستطع أن أرد ورجعت إلى ورقة الإجابة مرة أخرى.

وبعد الامتحان، خافت هذه السيدة الفاضلة أن يكون لذلك الموقف تأثير على الورقة فى الامتحان أو أن يُتخذ ضدى أى إجراء إلى الدكتور مصطفى فؤاد الذى اصطحبنى إلى رئيس الكنترول الذى لم يسمح لى بأن أعتذر له بل كان شديد الأدب وقال لى إننى لم أقصد أن أثيرك. وانتهى هذا الموقف الذى ضاع فيه تقدير الامتياز، وضاعت فيه أمنية المعيد بعد أن حصلت على جيد فى هذه السنة، وكانت صدمة إذ أخلفت الوعد مع الدكتور عماد الشربينى الذى وعدنى إذا حصلت على تقدير جيد جدًّا أن يعيننى معيدًا بالجامعة. وها قد تبدد الوعد وذهب الحلم، لكن الأحلام والأمانى باقية ما دامت العزيمة ماضية وما دامت الأيام تحمل معها الجديد من المواقف والأحداث، ولعل ما سلف من أيام وماكان فيها من ميلاد للنهار الرائع من وسط الركام الهائل من ظلمة نفس الإنسان عندما ينسى أنه إنسان أو عندما يفرط فيما أتاحه الخالق له من مصدر للعزة والكرامة. ودائمًا لابد لمن يقع أن ينفض عن نفسه غبار الزلل وأن يدفع عن روحه استكانة الفاشلين.

روح يا بنى مش هايخدوك!!

بعد حصولى على الليسانس بتقدير جيد وكان بينى وبين جيد جدًّا حوالى عشر درجات، ذهبت أحلامى أن أكون معيدًا فى الجامعة ولم أستطع أن أذهب إلى رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور عماد الشربينى صاحب الوعد، وفاتحنى والدى أن أكمل دراساتى العليا فى كلية الحقوق، فأمهلت نفسى قليلًا حتى أفكر فى مستقبل لم تتشكل ملامحه بعد. وهذه مشكلة من يضع أمامه هدف وحيد ليس له بدائل، ولكنى أخذت القرار بأننى سأقدم فى النيابة العامة وفى الوقت نفسه سأتدرب عند أحد المحامين لأجرب العمل فى المحاماة حتى أهتدى إلى الطريق الذى سأختاره.

وبعد أيام ذهبت أنا ووالدى إلى «الأستاذ أحمد سعيد» وكان من أشهر المحامين فى مدينة قويسنا وكان يعرفنى جيدًا وقابلنا فى مكتبه ورحب بأن أكون أحد المتدربين فى مكتبه، وبعد أن عدت إلى البيت لم أستطع أن أقنع نفسى أن أذهب فى اليوم التالى إلى مكتب الرجل وأعمل بالمحاماة، على الرغم من أدب الرجل العالى ومقابلته الطيبة وذوقه الرفيع، فأعطيت نفسى للكتب والقراءة فى هذا الوقت، خصوصًا أن المكتبة الخاصة بى فى صومعتى التى أسكنها وحدى كانت عامرة بما كنت أشتريه من مصروفى الخاص أيام الدراسة فى الكلية، وحيث كنت أحصل على مكافأة التفوق فى السنة الأولى وأنا فى كلية الحقوق والتى تُعطى لمن كان مجموعه فى الثانوية أكثر من 80٪ وكنت واحدًا من هؤلاء وتعطى أيضًا لمن يحصل فى أية سنة على جيد جدًّا وقد حصلت فى السنة الثانية على هذا التقدير، وبالتالى فقد حصلت على هذه المكافأة سنتين وكنت أخصصها لشراء

الكتب، خاصة الدينية ككتب التفسير أو السيرة أو كتب الشعر بجمع أنواعه.

وتابعت تقديمى فى النيابة العامة، وذهبت إلى المكتب المخصص لذلك بعد أن أعددت الأوراق اللازمة للتقديم، وكان يقع فى صالة دار القضاء العالى المهيبة. لقد كنت أحلم بأن أكون قاضيًا يجلس على المنصة لكى يحكم بين الناس بالعدل، وفى خيالى هذه الصورة الأخاذة للقاضى حين يجلس إلى منصة القضاء حوله هالة من المهابة لقدسية هذا المنصب الذى يتولى فيه بشر الحكم على بشر مثله، فلابد له من الإخلاص والعلم والحيدة والنزاهة، يزين كل ذلك تحرى الحقيقة حتى لايضيع حق ولايهان مظلوم.

وعندما دخلت إلى المكتب وكان معى أحد زملائى، نظر الموظف فى الأوراق، ثم طلب منى أن يتحدث إلىَّ وانتحى بى جانبًا من هذا البهو الواسع ووضع يده على كتفى، وقال لى كلامًا هو الحقيقة التى حاولت أن أتجاوزها وقالها بلسان من يعرف ماذا يحدث فى مثل هذه الأمور، قال: «أعرف أنك حصلت على تقدير جيد وأعرف أن من حقك التقديم فى النيابة العامة، ولكن نصيحة منى أنت مثل ابنى»، ثم قالها بالعامية المصرية صريحة واضحة «روح يابنى مش هايخدوك متتعبشى نفسك». كم هى مُرّة هذه الحقيقة التى مازالت سيفًا على الرقاب إلى الآن، وسوف تظل كذلك حتى تتاح كل الوظائف لمن يحمل مؤهلاتها العلمية والبدنية والنفسية دون أن يجور المجتمع على حق أفراده بدعاوى تجافى حقوق الإنسان، ودون أن ينتقص البعض من حق المجتمع فى سلامة من يقوم بمهام العدالة فيه، بمعنى أن تتاح جميع الوظائف لكل من يصلح لها،

وذلك بأن تحدد جميع المؤهلات لتولى الوظيفة سواء متعلقة بالقضاء أو بغيرها من الوظائف العامة، فهكذا يتعامل العالم المتحضر.

وأضرب مثلًا ببلد يحترم حق المواطن بغض النظر عن ظروفه الشخصية حتى ولو كان أعمى لايرى، لكن لأنه يستحق أن يشغل المنصب وأنه أصلح من يقوم بمهام هذا المنصب، يجب وقتها أن يُقدم هذا الشخص وأن تتاح له فرصة تقديم نفسه وخدمة وطنه. هذا ما حدث فى إنجلترا مع دافيد بلانكيد الكفيف الذى ولد فى قرية فقيرة فى مقاطعة شيفيلد وتعلم فى مدرسة للمكفوفين، ثم واصل دراساته العليا وحصل على الشهادة الوطنية فى دراسات الأعمال ودرجة الامتياز فى الاقتصاد والقانون والتاريخ الاقتصادى وعمل بالسياسة، وفى عام 1987 تم انتخابه عضوًا فى البرلمان عن حزب العمل لدائرة شيفيلد برايت ساييد الانتخابية، وهى واحدة من ست دوائر انتخابية برلمانية فى مدينة شيفيلد. ثم فى عام 1997 عندما ترأس بلير الحكومة تولى ديفيد منصب وزارة التعليم والتوظيف فى مجلس الوزراء البريطانى، وبعد أربع سنوات لاحقة تولى منصب وزير الداخلية المسؤولة بشكل كامل عن القانون والنظام والعدالة الجنائية والهجرة ومكافحة الإرهاب. كما تولى لفترة قصيرة كامل المسؤولية عن الرعاية الاجتماعية. هكذا يتعامل العالم المتحضر مع مواطنيه.

وفى تراثنا العربى والإسلامى الكثير من الأمثلة، منها أن النبى ﷺ ترك عبد الله بن أم مكتوم وكان أعمى أكثر من مرة واليًا على المدينة، أى أنه كان يحكم المدينة فى كل أمورها فى الفترةالتى يكون فيها النبى ﷺ غائبًا عنها.. هكذا تعامل النبى ﷺ مع أصحابه وهكذا يتعامل

العالم المتحضر فى هذه القضية، وهى احترام إنسانية الإنسان واحترام جهده بحيث يكون الفيصل فى هذا الموضوع هو الكفاءة، دون النظر إلى الاحتقار الذى ينظر به البعض إلى هذه الفئة حتى ولو قال كلامًا معسولًا غير ذلك.

وللأسف كان التعامل معى ومع غيرى ممن قضت أقدار الله عليهم أن يعيشوا دون عضو من أعضاء أجسامهم أن توصد أبواب الحياة فى وجوههم، فليس لهم حق فى أن يتولوا الوظائف أو أن يشاركوا فى صنع مستقبلهم ولا مستقبل بلادهم بسواعدهم أو أن يكونوا علامات فى تاريخ دولهم وجماعاتهم. فما حدث معى ومع كل من هم مثلى يمثل اعتداءً صارخًا وصريحًا على حقوق الإنسان، وما يشقينى أن القوانين الخاصة بالمعاقين مملوءة بالكلام المنمق المزين الجميل الذى لايستحق ثمن الحبر المكتوب به. وقد استفزنى موقف عندما شاهدت أحد المعاقين يتحدث إلى شخصية سياسية كبيرة ويقول له: «جئنا نستجير بك» فرد عليه هذا المسئول الكبير وقتها: «وأنا أجيرك»! فغضبت غضبًا شديدًا باعتبارى واحدًا ممن يتكلم عنهم هذا الذى يستجير، وغضبت لأنه يجب أن يطالب بتفعيل القانون، بمعنى أن تتاح جميع الوظائف لكل المواطنين بمن فيهم المعاقين.

وما حدث معى فى موضوع النيابة كان موقفًا ترك فى نفسى أثرًا سلبيًّا، خصوصًا أن من قُبلوا فى النيابة فى هذه السنة ممن عرفت لم يعرفوا طريقًا لقاعة المحاضرات يومًا ولا كان لهم اهتمام بالقانون والشريعة وغيرها من مواد كلية الحقوق.. هذه العبارة التى قالها لى هذا الموظف فى هذا الوقت «روح يابنى مش هايخدوك» كانت ومازالت تعبيرًا عن طريقة

التعامل مع قرابة الخمسة عشر مليون مصرى ـ حسب تقديرات الأمم المتحدة ـ تتكون منهم هذه الفئة. ولعل هذه السيرة الحياتية وما حوته من هذه المواقف وهذه الكلمات وهذا العرض وتلك الحادثة تكون «صرخة قوية» من أجل تفعيل القوانين الخاصة بهم تفعيلًا حقيقيًا بحيث يحصلون على كامل حقوقهم.

وداعًا كلية الحقوق

كانت السنوات الأربع التى قضيتها فى كلية الحقوق فى قاعات المحاضرات ومع الأساتذة ومع العلوم القانونية والتاريخية والفلسفية والشرعية من أهم سنوات الدراسة والاطلاع، حيث شكلت عقلى وطريقة تفكيرى، وزودتنى بذخيرة عقلية ومنطقية ورؤية شرعية من خلال ما درست ويمكن إجمال المنن والعطايا من خلال الدراسة فى كلية الحقوق فى بعض النقاط:

أولًا: طريقة التفكير وإعمال العقل

من أهم ماتعلمته من دراستى فى كلية الحقوق كانت طريقة التفكير، أى أن يكون تفكيرًا موضوعيًا لاتأثير فيه للهوى، بمعنى أن أطلع على الموضوع جيدًا وأفهم خباياه وجميع الآراء المطروحة بشأنه ثم أترك مجالًا للعقل ليعمل جهده فيما هو متاح له من أفكار، بحيث يرى أيها أقرب للصحة وأبعد عن الخطأ، خصوصًا وأن طبيعة الدراسة فى جميع المواد التى درسناها كانت فى النهاية علومًا إنسانية تختلف فيها الرؤى وليست علومًا تجريدية ولا تجريبية، لذا فقد وَسَّعَت عندى مجال إعمال العقل وأتاحت للفكر ردهات واسعة للأخذ والرد والمناقشة والحوار،

وهذا أفادنى بحق بعد ذلك فى مهمتى كإذاعى أعمل بالحوار من خلال الميكروفون وفى صالات الحياة حيث المناقشات والحوارات مع الناس لاتنتهى.

ثانيًا: القانون وفلسفة القانون

تعلمت القانون باعتباره قواعده عامة مجردة ينبغى أن تطبق على الجميع دون تمييز. ومن أهم ما أفادنى فى هذا المجال القانون المدنى، الذى أبهرتنى فيه «موسوعة الوسيط فى شرح القانون المدنى» فى عشرة أجزاء، للعلّامة الكبير «الدكتور عبد الرزاق السنهورى» والتى تُعتبر علامة فى هذا الفرع من فروع القانون. كما استفدت من كتابات العظام من الأساتذة الكبار كـ«الدكتور محمود نجيب حسنى» و«الدكتور أحمد فتحى سرور» الذى جرته السياسة إلى دروبها الوعرة فكان ماكان، لكن يبقى الرجل من أعمدة أساتذة القانون الجنائى فى مصر والقانون الإدارى. وأيضًا كتابات «الدكتور محمد كامل ليلة» و«الدكتور رمزى الشاعر»، وتاريخ فلسفة القانون الذى كان يدرسها لنا أحد الأساتذة الكبار لا أذكر اسمه، ولكن أذكر احترامه الشديد لنا كطلبته ومدى اهتمامه الشديد بمادته التى يدرسها باعتبارها مادة لتأريخ فلسفة القانون عبر العصور المختلفة، بمعنى بيان الحكمة من القانون وصلته بالأخلاق وبإسعاد البشر ومدى ملائمته إنسانيًا للحقب التى تمر بها البشرية.

ثالثًا: دراسة السلوك الإنسانى من الناحية النفسية

من أهم ما كنت أهتم به فى مقرر «علم الإجرام والعقاب» كان البحث عن دوافع العمل الإجرامى وعن سبب تحول الإنسان الطبيعى إلى الجنوح ومن ثم إلى الجريمة، وهل الإنسان يولد مجرمًا كما قال لومبروزو؟ وكيف

نفهم السلوك الإجرامى وكيف يتحول الإنسان بفعل البيئة المحيطة إلى مجرم؟ وكان ممتعًا أن نقرأ النظرية ثم نقرأ النقد الموجه لها، كما حدث مع لومبروزو فى نظريته ومع فرويد فى نظرية التحليل النفسى ومع غيرهم. وكان مما خرجت به أن البيئة المحيطة بالشخص تعتبر من أهم العوامل التى تجعله فى عداد المجرمين، ذلك أنها تعطيه الأسباب الموصلة للجريمة مع الأخذ فى الاعتبار الجوانب النفسية فى تحول حياة الإنسان الطبيعى إلى مجرم.

رابعًا: دراسة منهجية للشريعة الإسلامية

فى نظرى أن دارس الحقوق لديه زاد شرعى لايقل عمن درس فى الأزهر، ذلك أنه يدرس فى السنة الأولى مصادر التشريع الإسلامى وخصائصه ودرجات هذه المصادر وحجيتها، وفى السنة الثانية يدرس جميع مايتعلق بمسائل الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والعدة والحضانه، وفى السنة الثالثة يدرس علم المواريث والوصية والهبة وغيرها من التصرفات الشرعية، وفى السنة الرابعة يكون تشكيل العقل الفقهى والمنطقى عن طريق علم أصول الفقه الذى يعد بحق من أعظم ماأبدعه العقل المسلم والذى أسس لقواعده الإمام محمد بن إدريس الشافعى. وبهذا يكون من درس هذه المواد قد تكونت لديه حصيلة من العلم الشرعى يستطيع من خلالها ـ وبإضافة بعض العلوم لها كفقه اللغة وعلوم الدين ـ أن يكون داعية بل عالمًا بحق. وأعترف بفضل كلية الحقوق على مثلى بدراسة هذه المقررات التى أفادتنى، سواء فى حياتى الشخصية أو فى عملى الإعلامى بعد ذلك، والذى كان قوامه الاعتماد على هذه المقررات الراسخة فى علوم الشرع الإسلامى. وعلى الرغم من حصولى بعد حوالى

عشر سنوات على ليسانس كلية الدعوة الإسلامية من جامعة الأزهر إلا أن تأثير مادرسته من الشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق كان أبلغ أثرًا وأغنى مما درسته فى كلية الدعوة.

خامسًا: أساتذة عظام

أتاحت لى الدراسة فى كلية الحقوق التعرف على أساتذة عظام، سواء من كانوا يُدَرِّسون لنا فى قاعة المحاضرات أو مما اطلعنا على ماكتبوا فى الدراسات القانونية أو الدراسات المقارنة بالشريعة الإسلامية. وعلى رأس هؤلاء عميد كلية الحقوق ورئيس جامعة طنطا بعد ذلك الدكتور عماد الشربينى. وأذكر «الدكتور جعفر عبد السلام» أستاذ القانون الدولى فى جامعة الأزهر الذى كان يُدرس لنا القانون الدولى وكان مبدعًا فى شرحه، ومازلت أذكر رأيه بعد ثلاثين سنة فى أن حرية الأسير ستكون مفروضة على الدول لأن لا أحد يستطيع أن يوقفها، وكان يتيح لنا مناقشته فى غرفة الأستاذ بعد المحاضرة، وسأله أحد الطلبة عن الرئيس السادات فقال هو سينمائى بطبعه، وقد أجريت معه حوارًا فى برنامجى سيرة ومسيرة وذكرته بمحاضراته لنا منذ ثلاثين سنة فى طنطا.

ومن الأساتذة الذين كنت أعتز بهم الأستاذ الكبير الدكتور «عبد المجيد مطلوب» الذى كان يدرس لنا علم المواريث الذى مازلت أحفظه إلى الآن بشرح هذا الأستاذ القدير، الذى كان يضع وجهه فى كتاب أمامه ثم يرفعه قليلًا حتى يكون فمه أمام الميكروفون ثم يقول وكأنه يمضغ الحروف قبل أن ينطقها: «تكلمنا فى المحاضرة السابقة عن موضوع.....» ويظل هكذا حتى تنتهى المحاضرة. والدكتور «توفيق حسن فرج» هذا العلم فى مجال القانون المدنى وعميد حقوق إسكندرية

من عام 1979 إلى عام 1982، الذى كان يدرس لنا القانون المدنى فى السنة الثالثة وكان مبدعًا فى شرح وتبسيط النقاط الصعبة فى عقود البيوع، وكان يقدس قاعة المحاضرات، فكنت تقرأ فى وجهه الذى الجدية التى تصل إلى حد الصرامة، وتدفعك بدايته للمحاضرة لأن تترك ما فى يديك لأنه يحدد ما سيتم شرحه ثم يبدأ فى عرضه الدقيق لكل ما يشمله الموضوع، حقًا إنه من الشخصيات التى لا يمكن أن أنسى نقشه للجدية فى نفسى عندما أبدأ فى عمل ما.

وأخيرًا هذا الشاب الذى حصل على الدكتوراه من فرنسا ودرس لنا مادة القانون التجارى والبحرى، «الدكتور حسين فتحى» والذى كان فى أوائل تصديه للتدريس فى كلية حقوق جامعة طنطا، ونشأت بينى وبينه صداقة كتلك التى تنشأ عادة بين الأستاذ وتلميذه، وكان شديد الأدب عظيم الاحترام وافر الذوق، وكان حنونًا شفوقًا طيبًا. كان يعلم بوعد الدكتور عماد الشربينى لى فى حالة حصولى على جيد جدًّا بتعيينى فى الكلية، فلما أخلفت الوعد مع الرجل ولم أحصل على هذا التقدير كانت أقدار الله قد استودعت لى عندها الدكتور حسين فتحى الذى فتح لى طريق الإذاعة، فقد كان السبب الأول فى مصافحة نبرات صوتى ميكروفون الإذاعة، لكن كيف؟ تعالوا لنرى.

عبد الوهاب مطاوع وأحلام اليقظة

بعد أن انتهيت من الليسانس، لم تنقطع علاقتى مع الدكتور حسين فتحى هذا الشاب الذى عُين حديثًا فى الكلية والذى نشأت بينى وبينه نوع من العلاقة كنت أحس فيها بالأخوة الحانية، وطلب منى أن

تجرى زوجته الصحفية المشهورة ـ والتى كانت بعد ذلك رئيسة القسم الاقتصادى بجريدة الأهرام ـ حوارًا للنشر فى الجريدة، فاستقبلتنى فى جريدة الأهرام وأجرت معى الحوار. وفى هذه الفترة كنت قد اتخذت القرار بعدم العمل فى مهنة المحاماة على الرغم من إلحاح الوالد بأن أجرب لكنى لم أفعل، وكذلك حلم النيابة قد راح أدراج الرياح بفعل مجتمع ـ بل دولة ـ لا تعترف ببعض أبنائها وكأنها ولدتهم سفاحًا، لا لعيب فيهم لكن لعيب فى نظام يفرق بين المواطنين بالذراع والقدم وليس بالفكر والعقل. وما زلت أذكر بالفضل إلحاح الدكتور حسين فتحى لأن يصحبنى لشركة من شركات القطاع الخاص لكى أعين فى شئونها القانونية، وكيف قابلنا مديرها بترحاب شديد وقال أمهلونى بعض الوقت.

ثم كانت لحظة فارقة فى حياتى، لا يمكن أن أنساها، هذه اللحظة التى كنت فيها وحدى فى غرفة فى الفضاء الخالى فوق سطح بيتنا ومعى الراديو الذى كان يلازمنى دائمًا بجانب وسادتى التى أنام عليها، وكنت أتابع على موجاته جميع الإذاعات، وفى هذه اللحظات كانت أذناى تستقبل صوت مذيع ينطق الكلمات سليمة المبنى والمعنى مستقيمة الأداء جميلة المفتتح والنهاية، فجاء على خاطرى طيف مُلِح يسائلنى لماذا لا؟ لماذا لاتكون كمن يتكلم فى الإذاعة الآن؟

وكان كحلم يقظة يراود الإنسان فى لحظة يحاول فيها أن يبحث عن إجابة، فتطرده النفس بكيف؟ وهذه غاية تقترب من المستحيل إن لم تكن هو نفسه. ولكن حاولت أن أجيب بينى وبين نفسى كأنه حوار بين اثنين، الأول يقول الأمر صعب ويرد الثانى: لكنه بالنسبة لك مناسب تمامًا، فماذا تحتاج الإذاعة؟ تحتاج إلى صوت وتحتاج إلى لغة وتحتاج إلى معلومات عامة وثقافة، وكل هذه الأشياء متوافرة بالحد الذى يصلح معه

أن تكون مذيعًا، فيرد الأول ومن سيقتنع بك أن تكون مذيعًا وأنت بهذا الشكل؟ فيرد الثانى سأحاول أن أقنعهم، وسكت الاثنان داخل النفس وفرض سؤال الحقيقة نفسه ومن سيتكلم فى هذا الموضوع؟

فى هذه اللحظة قفز إلى ذهنى تحديدًا كلام الدكتور حسين فتحى بأنه قد تحدث مع الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بشأنى وأن الأستاذ عبد الوهاب قد طلب أن أذهب إليه، فوجدتها فرصة سانحة لا تعوض، وحين التقيت الدكتور حسين فتحى فاتحته فى الموضوع ورغبتى فى دعم الأستاذ عبد الوهاب للالتحاق بالإذاعة فأعجب بالفكرة وشجعها. وبعد بضعة أيام سمعت صوته متهللًا بأخذ الموعد مع الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى مكتبه فى جريدة الأهرام وقد كنت أعرفه جيدًا من خلال بريد الأهرام الذى كان يتولى تحريره وبالقصص الإنسانية الرائعة من خلال الرسائل التى كانت تأتيه من قارئيه ويتولى الرد عليها.

ووقفت أمام البهو فى استقبال جريدة الأهرام، وأبلغتهم بأن هناك موعدًا مع الأستاذ عبد الوهاب مطاوع. وجال خاطرى وأنا أنتظر الرد من مكتب الأستاذ بهذا المبنى الذى يخرج منه هذا الفكر الذى أرتشف رحيقه من جريدة الأهرام من كُتابها العظام على اختلاف توجهاتهم الفكرية، هذا المبنى كان جلس على قمته محمد حسنين هيكل. وفى نفس اللحظة نادانى موظف الاستقبال أن أذهب إلى مكتب الأستاذ عبد الوهاب مطاوع وأشار إلى المصعد، فأخذنى المصعد وقلبى يخفق حتى انتهيت إلى المكتب فطلب منى مدير مكتبه أن أجلس، وبعد عدة دقائق طلب منى الدخول وفتح لى باب الغرفة.

وجدت نفسى مع هذا الرجل الذى أقرأ له ولطالما أعجبنى هذا

الأسلوب الرصين فى الكتابة، فألقيت السلام فرد بهدوء سمعته وكأنه طرق للصوت خفيف على طبلة الأذن، وجلست على كرسى شمال مكتبه الذى وُضعت عليه أباجورة نورها موجه للمكتب حيث يكتب الرجل، وباقى الغرفة كان ضوؤها خافت يحمل لمن يجلس فيها سيما الهدوء والراحة النفسية، وأما وجهه فيحمل سكينة تحسها فى صمته الوقور وفى نظرة عينيه المتسائلة، وقال بصوته الهادئ بعد أن رحب بى:

الدكتور حسين يحبك جدًّا كلمنى يا رضا عن نفسك.

حدثته عن رحلة الحياة من بدايتها إلى وقت جلوسى معه، فتوقف وسأل عن والدى وأشاد به بل قال إن أباك هذا هو شريك لك فى هذا النجاح. ثم أخذ يحدثنى عن هيلين كيلر وكيف وهى عمياء وبكماء وصماء يتحدث عنها العالم كله إلى الآن، وقال لى إنه على يقين أننى سأكون علامة فى المجال الذى اختاره. ثم قال لى إن الدكتور حسين قد قال إنك تريد أن تعمل مذيعًا فى الإذاعة، وطلب منى أن أخبره لماذا فكرت فى هذا العمل؟ فقلت له إن مؤهلات هذا العمل أملكها جميعًا؛ من صوت ليس فيه لثغة ولا شىء من هذا ومن لغة أجيدها تمامًا ومن قرآن أحفظ معظم سوره ومن معلومات عامة ومن ثقافة متوفرة من خلال كلية الحقوق التى تخرجت فيها والتى يُعتبر خريجها مثقفًا بما حصل عليه من مقررات. فإذا بوجه الرجل الهادئ ينبسط وكأن هالة من الرضا قد طبعت على ثنايا وجهه، وأمسك بكارت له ضمن مجموعة من الكروت كانت أمامه وكتب على ظهره «الأخ الكريم الأستاذ فهمى عمر.. حامل هذه الرسالة يهمنى أمره فأرجو الاهتمام به» وطلب منى أن أبلغه بما حدث، وكان الطريق مفتوحًا إلى رحلة أخرى حيث النقش مازال مستمرًا على أحجار الحياة.